وقد اثبت كثير من علماء المتيورولوجيا ان دوران العواصف في الجزء الشمالي من الكرة يكون ضد حركة عقارب الساعة وفي الجزء الجنوبي معها . واقضى الاكتشاف المذكور آنفاً وهو ان الزوابع والعواصف تدور في خطوط منحنية الى فوائد كثيرة للملاحين فانهم اولاً استطاعوا به ان يجتنبوا خطر الزوابع الاكبر وهو يكون دائماً في مركزها . وثانياً تعلموا افضل الوسائل لادارة سفنهم في خلال العواصف . وثالثاً عرفوا كيف يسخرون العاصفة لخدمة سفنهم باجرائها في خطٍ منحنٍ بدلاً من السير بها في خطٍ مستقيم

المباحث النفسية والفلسفة المادية

قرأت في متتطف الشهر الماضي (دسمبر سنة ١٩١٨) مقالة تحت عنوان (البحث الفلسفي الحديث) فرأيت ان ابدي ملاحظات عنت لي فيه رجاء تجلية الحقائق العلمية التي تنشدونها

جاء في ذلك الفصل ان ما ينشر الآن من الكتب والمقالات الفلسفية قد مال به عن الطريقة (العلمية) الى الطريقة (الروحية) وان اكثر اهتمام الناس كان موجهاً في السنوات الاخيرة الى هذا القسم من الفلسفة

هذا كلام صريح بان الميل العام اخذ يتجه غير الوجهة المادية في المباحث الفلسفية . وهو حادث جلل في تاريخ الفلسفة الاوربية لا يصح ان يهمل امرهُ او ان يعلل تعليلاً بنظرة عجلى فان اوربا التي بلغت اشدها في المباحث المادية وذاقت ثمار جهادها فيها عدة قرون لا تظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطاً بل لا بد لذلك من علل جديرة بامعان النظر

ثم جاء في تلك المقالة ان « المعتقدين بمناجاة الارواح غرضهم الاول اهمال العقل وارضاء العواطف »

وهو كلام يدل بصراحة على ان الباحثين في مسألة الروح مخرقون يجافون الاسلوب العلمي الدقيق في ابحاثهم ولا يتوخون الاَّ مشايعة ميولهم

ثم جاء في ذلك المقال ان الذين يصدقون بمناجاة الارواح تضعف قواهم العصبية رويداً رويداً وينتهي امرهم الى الجنون

ثم ذكر الكاتب تلك العجالة ان الباحثين في هذه المسائل لا يلزم ان يكونوا كلهم خادعين او مخدوعين بل يغلب ان يكون كثير منهم مخدوعين من تلقاء انفسهم اي ان اميالهم تتسلط على عقولهم مع انهم في غيرها يكونون من اذكى الناس عقلاً واكثرهم بحثاً وتدقيقاً ومن هذا القبيل السر اوليفر لدج . ثم قال ونحن نعرف رجلاً كان من امهر الناس في العلوم الرياضية وحل غوامضها وتطبيقها ولكنهُ كان مع ذلك يصدق من الاوهام بما لا يصدقهُ العامي

وهذا القول صريح الدلالة في ان جميع الباحثين في هذه المسألة لا يؤبه باقوالهم وان السر اوليفر لدج وذلك الرياضي الجليل يكادان يكونان العالمين الوحيدين اللذين يشاركان دهماء الروحيين في وساوسهم

وبما اني من المتتبعين لحركة المباحث النفسية في اوربا واميركا وقرأت اجل ما كتب فيها بلغة الباحثين انفسهم رأيت ان اوافي المقتطف ببحث وجيز في هذا الموضوع تجلية للحقيقة واعداً بالعود الى مثله كلما سنحت لي فرصة . واني ما وقفت حنين كثيرة من حياتي العلمية لاستقصاء هذه المباحث الا لانها حادث جلل في تاريخ العلم العصري سيكون من اثره تعديل مزاج الفلسفة العصرية وتكميل بناء المدركات البشرية على المادة والروح معاً

كيف نشأت المباحث النفسية

حدث في سنة ١٨٤٦ في قرية هيدسفيل من ولاية نيويورك باميركا ان اسرة رجل اسمهُ جون فوكس ازعجتها طرقات كانت تحدث في البيت الذي تسكنهُ فتجارأت مدام فوكس ذات يوم وسألت ذلك الفاعل المستتر قائلة هل انت روح ؟ واتفقت معهُ على ان يكون علامة الايجاب طرقتين وعلامة السلب طرقة واحدة . فاجابها بطرقتين . ثم ما زالت تسألهُ وهو يجيب بواسطة الطرق حتى علمت منهُ انهُ روح ساكن كان بهذا البيت قتلهُ جار لهُ ودفنهُ فيهِ ثم سلبهُ مالهُ ولم تهتد الحكومة اليهِ . فاسرعت مدام فوكس بانذار البوليس والنيابة فحضر رجالها واخذوا كل حيطة وتسمعوا للطرقات على طريقة صاحبة البيت

وفهموا منها ما فهمتهُ .فعمدوا الى الخنصر في المكان الذي دلت عليهِ الروح فوجدوا جثة القتيل وكان من أثر ذلك اهتداؤهم الى القاتل

هدأت روح القتيل ولكنها ظلت تزور بنتي المستر جون فوكس حتى انستا بها وحضرت ارواح اخرى ادعت انها ارواح موتى آخرين وتحسنت طريقة التفاهم بينهم وبين هذه الكائنات فجعلت على هذه الطريقة : وهي ان تقرأ واحدة منها الحروف الهجائية فتطرق الروح عند الحرف المراد كتابتهُ طرقة فتكتب الاخرى ذلك الحرف ثم تعيد الاولى سرد الحروف فتطرق الروح عند الحرف المراد كتابتهُ طرقة ثانية وهلم جرًّا . ثم تجمع تلك الحروف وتقرأ

فجاءت تلك الروح ذات يوم ورجت الاختين ان يعلنا بأنهما مستعدتان لاشهاد الناس خوارق تثبت لهم وجود الارواح في أكبر مكان للمحاضرات في نيويورك. فأبت البنتان ذلك اشد اباء خشية من سوء القالة واتهامهما بالشعوذة . فاجابتهما الروح بانها تصر على ذلك لانها تريد ان تنتهز هذه الفرصة فتثبت للناس صحة خلود النفس قائلة انها ما تجشمت الاستئناس بهما الى هذا الحد الاَّ لهذه الغاية . فاصرت البنتان على الاباء والامتناع .فانذرتهما الروح بانهما ان بقيتا على اصرارهما ذهبت ولم تعد . فلما استمر اصرارهما ذهبت كما قالت ولم تعد البنتان تسمعان شيئاً . فحدث لهما من جراء ذلك كدر عظيم لانهما كانتا قد انستا بتلك الروح وجعلتا التكلم معها من اكبر المسليات لهما . فلم يسعهما اخيراً الاَّ القبول ولكنهما شرطتا ان يكون العمل في الصالونات الكبيرة لبعض البيوت ثم تتدرجان من ذلك الى قاعة المحاضرات الكبرى . فاخذ البنتان تحضران في بعض تلك الصالونات امام جمهور من العلماء والمفكرين فتحدث خوارق عديدة رغماً عن كل ما يتخذ من التحوطات . ثم اعلنتا التحضير في قاعة المحاضرات الكبرى فشهد هذه الخوارق جم غفير من الناس وكثر التحدث بها في كل ناد

فكان القاضي ادمون رئيس مجلس الاعيان بامريكا من اسرع الناس الى بحث هذه الخوارق فاعتقد صحتها وكتب فيها بحثاً مستفيضاً فحملت عليهِ الجرائد حملات عنيفة ففضل ان يستقيل ويخدم الحقيقة على ان يبقى في وظيفتهِ متيداً بتقاليدها فكان من اكبر العاملين على نشر هذه المباحث

ثم تلاه الاستاذ (مالبس) معلم علم الكيمياء بالمجمع العلمي فانتهى امره بتصديقها ونشر مباحثه على رؤوس الاشهاد

هذا جدوه العلامة روبيرت هدر وطال البحث والتنقيب فظهر له صدق نظر صاحبيه فوضع كتاباً جليلاً سماه (الابحاث التجريبية على الظواهر النفسية)

فكان من اثر هذه الكتابات فيه ان نشبت حرب قلمية بين الباحثين فلم يبق عالم ولا كاتب في الولايات المتحدة الا خاض غمارها وانتقلت الحركة الى انجلترا فانتدب العلامة الكيماوي الكبير وليم كروكس لبحثها مع بعض الوسطاء الانجليز فاتضح له انه حيال قوى كبيرة من قوى النفس كانت مجهولة فكتب في ذلك كتاباً دعاه (مباحث على الظواهر النفسية قال) فيه :

« بما اني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي ان ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم . اما انا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة »

ولما تولى هذا العالم رياسة الجمعية الملكية اشار في خطابة الرياسة الى المسائل النفسية وقال انه مضى عليه في بحثها ٣٥ سنة وان معارفه قد زادت فيها وانه سينشر عنها كتاباً جديداً وقد نقل المقتطف عنه هذه الخطبة

وكان من السابقين الى بحث هذه المسئلة العلامة الكبير الفرد روسل ولاس مكتشف مذهب النشوء والارتقاء هو وداروين في وقت واحد فوضع فيها كتابين جليلين يسمى احدهما (خوارق العصر الحاضر) ويدعى الثاني (الدفاع عن الاسبرتزم) وقد قال في الاول ما نصه :

« لقد كنت ملحداً بحتاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن في ذهني محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ولكن رأيت ان المشاهدات الحسية لا تغالب فانها قهرتني واجبرتني على اعتبارها حقائق مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً على صورة لا يمكن تعليلها بوسيلة اخرى »

ومن عني ببحثها من كبار العلماء العلامة الايطالي الكبير (سيزار لومبروزو) مكتشف علم الجرائم فانهُ بعد ان رمى المصدقين بها بالجنون وكتب عنهم فصولاً انتقادية في مؤلفاتهِ عاد فبحث هذه الخوارق مع العلامتين كاميل فلاريون الفلكي المشهور والاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي ومدير الجريدة العلمية والمدرس بجامعة الطب الباريزية وألف في ذلك كتاباً قال في مقدمتهِ

« لم يكن احد اشد مني عداء للاسبرتزم بحكم تربيتي العلمية وميولي النفسية. وكنت اعتبر من البديهيات العلمية ان كل قوة ليست الا خاصة من الخواص المادية وان كل فكر وظيفة من الوظائف المخية . وكنت امرأ دائماً من الاخونة المتكلمة. ولكن شرفي باظهار الحقيقة وتجلية الحوادث المشاهدة قد تغلب على عقيدتي العلمية »

ومن كبار العلماء الذين درسوا هذه المسألة درساً مدققاً الاستاذ هودسون والاستاذ ميرس المدرسان بجامعة كمبردج وستتون مورنس المدرس بجامعة اكسفورد والسير جون كوكس المشترع المشهور والاستاذ باركس الجيولوجي والمستر غلادستون والمستر بالفور وزير الخارجية الانجليزية الحاضرة والعلماء سيدجويك وبودمور وباريت وغارني وكلهم من الانجليز

اما من العلماء الفرنسيين فنذكر شارل ريشيه وكاميل فلاريون المتقدم ذكرهما والدكتورين ماكسويل وبيير جانيه والرياضي الكبير مدير مدرسة الهندسة الفرنسية البيردوروشاس والدكتور بارادوك

ومن الالمان العلماء زولنر الفلكي وفيشنر وويبر والتريسي

ومن الامريكان شارل وليم اليوت رئيس جامعة هارفارد ووليم جيمس استاذ علم النفس بجامعة هارفارد وهيزلوب استاذ العلوم العقلية بجامعة كولومبيا ووليم ليو بولد استاذ الفلسفة بجامعة بنسلفانيا

كل من ذكرناهم من اقطاب العلم الرسمي وكانوا ماديين لا يعتقدون بشيء غير المادة وكتبهم بين ايدينا ولو شئنا لملأنا من اسماء امثالهم صحفاً عديدة وانما اكتفينا بهذا القدر للادلال على عظم خطر هذه المباحث الجديدة ولم يحصل لواحد منهم جنون وقد مضى على بعضهم في البحث اكثر من نصف قرن وجميعهم شاغلون لمناصبهم العالية من مجتمعاتهم

قال الفيلسوف جان فينو مدير مجلة المجلات الفرنسية في مجلته (عند ذكر هذه المباحث في مجلد سنة ١٨٩٥ وبعد سرده عدداً من العلماء المشتغلين بها) :

« لا يصح ان يفرض ان هؤلاء الرجال يستخدمون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التي حطت كثيراً من العظمة الروحية . كما انهُ من الصعب ان نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية هي اشهر من ان تذكر »

وقال الاستاذ (بينيه) في كتابهِ (تحولات الشخصية) في صحيفة (٢٩٨) بعد ذكرهِ بعض التجارب الروحية :

« هذه البراهين كافية لان يتمكن مذهب كالاسبرتزم من ادهاش الناس اجمعين وكسب الوف مؤلفة من المصدقين »

وقال العلامة البسيكولوجي الشهير (بيير جانيه) في كتابهِ (الحركة النفسية الذاتية) صحيفة ٣٧٦ وما بعدها :

« المذهب الذي اوجزنا الكلام عنهُ هنا يستحق درساً مدققاً ومناقشة اصولية . وان التشكك والازدراء اللذين يحملان على نكران كل ما لا يفهم وعلى ترداد كلتي غش وتدليس دائماً وفي كل مكان ليس لهما مكان هنا ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيواني . فان الحركة التي دفعت الى تأسيس خمسين جريدة في اوربا وحملت على اعتقادها عدداً عظيماً من الناس لا يصح ان تعتبر قليلة القيمة »

وقال الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسية والمدرس بالجامعة الطبية بباريز في مجموعة العلوم النفسية لسنة (١٨٩٣) صحيفة ٣٤٩ :

« لا يمكن ان مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين في انجلترا وامريكا وفرنسا والمانيا وايطاليا يقعون تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل . فان كل ما وجه اليهم من الاعتراضات قد فكروا فيهِ وتناقشوا عليهِ . ولم يزدهم احد علماً كلما عارضهم بمسألة المصادفات الممكنة والتدليس فانهم قد فكروا فيها قبل ان يعارضوا بها حتى اني لا استطيع ان اتوهم ان اعمالهم كانت عقيمة او انهم قد تأملوا وجربوا في اوهام خداعة »

وقال الكاتب الفرنسي المشهور (جبريل دولان) في كتابهِ (مباحث على الوساطة) :

« اننا نعتقد انهُ متى اكد رجال من درجة روبيرت هار ومالبس والقاضي ادموند بامريكا وكروكس وولاس ولودج بانجلترا واكتراكوف وبوترلوف في روسيا وفيخنر وزولنر في المانيا وجينيه بفرنسا — قلنا متى اكد رجال من هذه الدرجة ومعهم عدة الوف من المجربين انهم شاهدوا الحوادث المذكورة آنفاً وانهم راقبوها بعناية فاننا نعتقد ان لهذه المشاهدات وجوداً حقيقياً وانها دخلت من ذلك الحين الى المجال العلمي »

ايهمل الباحثون في هذه المسئلة العقل
ليرضوا العواطف

اكثر العلماء الذين بحثوا في هذه المسئلة لم يدفعهم اليها الاَّ حب فضح استار المشعوذين فاستخدموا لذلك ادق الاساليب العلمية والآلات الكشفية فانتهى امرهم باعتقاد سلامتها من كل تدليس

ولما شاع ذكر هذه المباحث في انجلترا ثارت لها الخواطر وخشي المتنورون من عودة دولة الاوهام البائدة الى العلم والفلسفة فرفع عدة الوف منهم طلباً الى الجمعية الملكية لتبدي اللامة رأيها في هذه المسئلة . فاهتمت تلك الجمعية بالامر وعينت لفحصها لجنة مؤلفة من ثلاثين عالماً منهم روسل ولاس ووليم كروكس وتندل واللورد افبري وهكسلي فقامت هذه اللجنة بما عهد اليها في ثمانية عشر شهراً وعقدت للبحث والتجربة اربعين جلسة ورفعت عن ذلك تقريراً مطولا وقع في مجلد ضخم ترجم الى اكثر اللغات جاء منهُ ما يأتي :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالاعضاء لاجل نفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث هذه الظواهر او اية وسيلة من اي نوع كانت

« وقد تحاشت اللجنة ان تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة او الذين يأخذون اجراً على عملهم هذا لان واسطتنا كان احد اعضاء اللجنة وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية وحاصل على صفة النزاهة المطلقة وليس لهُ من غرض مالي يرمي اليهِ ولا اي مصلحة في غش اللجنة

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيلهُ من التحوطات عملت بصبر وثبات . وقد دبرت هذه التجارب في احوال كثيرة

الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاحتراز ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش او توهم

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع

« وقد بدأ عمل اربعة اخاص اعضاء اللجنة تجاربهم وهم في اشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر وكانوا مقتنعين اشد اقتناع بانها كانت اما نتيجة التدليس او التوهم او انها تحدث بحركة غير اعتيادية للعضلات ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون للغاية عن فروضهم هذه الا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا تمكن مقاومتهُ في شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة فاقتنعوا رغماً عنهم بان هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لا غبار عليها . الخ الخ »

هذا بعض ما ورد في نتيجة ذلك التقرير والقارىء يرى ان خوض ثلاثين عالماً انجليزياً من اعضاء الجمعية الملكية في بحث هذه المشاهدات لم يكن الدافع اليهِ اهمال العقل وارضاء العواطف بل تهدئة ثورة الخواطر . وهذا التقرير الذي هو حادث جلل في تاريخ العلم العصري يعتبر فاتحة عهد جديد لتكميل الفلسفة وتحليتها بما تجردت عنهُ من القسم الروحي تحت تأثير الفلسفة المادية

ومما يجب التنبيه اليهِ ان جل الذين يكذبون بهذه المباحث لم يقرأوا فيها كتاباً واحداً ولم يلموا بتاريخها وادوارها الى ما يسمح لهم بالحكم عليها . ومنهم من عمل فيها تجارب ناقصة او وقع تحت طائلة بعض المدلسين وكثير ما هم في كل مجال من مجالات العلم والعمل فهبوا يصخبون بأن جميع التجارب تدليس في تدليس

لو كان الذين يتولون هذه الحركة بعض العامة او جماعة من كتاب الاقاصيص لما اعرناها أقل التفات ولكن العاملين فيها هم أعلم علماء الارض وما كنا لنعبأ بهم ايضاً لو كان عددهم محصوراً في عقد او عقدين وكنا قلنا كما يجوز الانخداع على واحد يجوز على عشرة او عشرين ولكن عددهم قد تجاوز حد الاحصاء فهم يعدون بالالوف ومنتشرون في كل بلد متمدن وكتبهم بين ايدينا مفصلة تجاربهم كل التفصيل مما لا سبيل الى الزراية عليهِ

ثم لماذا ينتكر البعض امر هذه المباحث وهل الغرض منها الا اثبات شيء اجمع العالم على القول به قديماً وحديثاً وهو وجود الروح وخلودها بعد الموت ؟

نعم كانت الفلسفة المادية قد تشككت في هذه المسئلة وعدتها من بقايا الخرافات السابقة ولكن ليس في الارض فيلسوف يقول بان المذهب المادي قد وصل الى الدرجة التي ليس وراءها غاية بل هو اليوم وقد انهدم ركن الجوهر الفرد وثبت تحلل المادة واستحالتها الى قوة قد فقد اساسه الذي كان يعتمد عليه

لقد حاربت الفلسفة المادية التنويم المغناطيسي مئة سنة وعدت المشتغلين به مخرقين ثم اضطرت لاعتباره فرعاً من العلوم الرسمية وهذه الفلسفة عينها اليوم تحارب المباحث النفسية بنفس السلاح الذي حاربت به التنويم المغناطيسي ولكن هيهات فقد خرج الامر من يديها بعد ما فقدت سلطانها على العقول بثبوت تحلل المادة وبعد ما شهد الوف من العلماء المحققين بحقية المشاهدات النفسية . فالاولى باشياع تلك الفلسفة العتيقة ان يتلافوا الامر ويوفقوا اصولها على ما فتح الله به على الناس من المباحث الجديدة لان من اخص صفات العلم العصري متابعة طريقه في التقدم لا الجمود على اصول قديمة ثبت بالامتحان انها ضيقة حرجة لا تجمع بين اطراف الحركة العلمية الحاضرة

***

هذا وقد تكونت في لوندره منذ سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم جمعية المباحث النفسية جمعت بين اعضائها خيرة علماء الانجليز والفرنسيين والامريكان وكان الغرض من تأسيسها ان تكون وصلة بين العلم الرسمي وهذه المباحث فكان من تأثير هذه الجمعية صبغ المسئلة بصبغة علمية بحتة لتسهيل دخولها الى العلم الرسمي. وسنأتي على اسماء اعضائها ونتيجة تجاربهم في الجزء المقبل من المقتطف ان شاء الله

محمد فريد وجدي